حنّا الفانوس

قصة بقلم توفيق يوسف عواد

كان جاري .
وكان اسمه حنا الفانوس
وللجيرة بيننا قصة عجيبة ـ بانتظار قصتهمع فانوسهوهي اعجب.

✶

يرجع ذلك الى التاريخ الذي اشتريت فيه من رهبان دير الشرخ « عودة بوحنا » لابني فيها بيتي الصيفي .

لقطة . باسعار الحرب اخذتها . في الحروب ، كما تعلمون ، يرخص شيئان : الاراضي والارواح .

والرهبان الذين يغفرون خطايا العالم كل يوم لا يغفرون لرئيسهم حتى اليوم ـ مع علمهم بذلك ـ انه باعني عودة بوحنا بترابالفلوس.

اذكر انه افادني ، وهو يعدّها ، ان العودة في زمان الحرير في لبنان كانت تعني القطعة من الارض المزروعة توتا ، يقوم عليها فلاح من قبل المالك هو الشريك ، وان الشريك لذلك الزمان كان اسمه بوحنا . وكان بوحنا يعيش مع ام حنا وحنا والبقرة والقزات في مراح هو عبارة عن قبو ما يزال قائما في طرف العودة .

وزاد ، رحمه الله ، تبرئة للذمة ، انه يبيعني العودة على عيبها. يعني مع حنا الذي يأبى ان يترك القبو .

✶

بعد التوقيع على العقد ذهبت الى عودتي اتعرف الى حدودها برافقة رئيس الدير ، مستمتعا في سري بالغنيمة التي غنمتها منه ، متشوقا للقاء صاحبي حنا . فاذا حنا يخرج من القبو ـ هذا هو بلا شك ـ بقميباز ممزق وعينين محملقتين ، وبيده فانوس يضعه في وجهي ويسألني من حضرتي وماذا اريد .

ـ انا صاحب هذه الارض الجديد .

قال :

ـ اي ارض ؟

فاستعنت برئيس الدير ففسر له انني اشتريت العودة من الدير . فدفع فانوسه في ذقن المحترم :

ـ انت ، ما علينا ، اعمى . من اين وقعت على اعمى اكثر منك لتبيعه العودة ؟.

وعاد اليّ بفانوسه يلوح به ويتفرس بي على ضوئه . اي ضوء ؟ الفانوس لم يعرف الزيت ، كما قال لي رئيس الدير ، منذ ماتت ام حنا .

لا اخفيكم ان الامر ضايقني ، ولعل حنا احس بزوغان عينيّ فانقطع عن رسم دوائره ليرسم بعدها علامة الصليب عليّ ـ دائما بفانوسه المطفأ ـ مسبلا اجفانه ومتمتما بكلمات غير مسموعة .

ثم انقلب بفانوسه الى القبو وهو يردد مقهقها :

ـ قال هو صاحب الارض ! قال هو صاحب الارض !

واخبرني رئيس الدير ان حنا من العاملين بالآية « الملك لله » ـ بحذافيرها ـ . فمرة قال له ـ « تفضل يا محترم وابرز لي وكالتك عن الله » وتساهل : « اقبل امضاء اي واحد من الثلاثة : الاب ، او الابن او الروح القدس » .

والا فليبع رئيس الدير العودة لمن يشاء . هو لن يترك القبو .

تتصورون غصتي في تلك الساعة ومعها غضبي . صك الملكية في جيبي وانا قاض احكم بالعدل بين الناس . وهذا معناه في القانون غصب املاك الغير . فما على حنا الا ان يخلي القبو والا اخليته منه بالقوة وكسرت فانوسه على رأسه .

✶

لا لزوم ان اقول لكم ان حنا كان بعد شهر في العصفورية . فاثبات الجنون عليه كان اهون الهينات . وعلى الاثر علت اصوات المعاول والمطارق في العودة لبناء بيتي .

وهممت بهدم ذلك القبو العتيق الادكن ، ولكن رئيس الفعلة كان رجلا حكيما . قال لي :

ـ بل الخير في تركه . تضع فيه العدة من الان الى ان تفرغ من البناء . ومن يدري ؟ قد تحتاج اليه في المستقبل لدجاجاتك . اما هذا الفانوس ...

ورفع يده الى القنطرة يريد ان يطرح الفانوس في الوادي فتداركته .

ـ ونترك الفانوس مكانه .

✶

في اليوم الذي تم فيه بيتي اقمت عيدا دعوت له اصحابي الى مائدة عامرة اصبت فيها من الطرب ما استخفني . وما شان الوقار في ذلك اليوم ، فقد كان بيتي الجديد جميلا ، وللطرب حقه حتى على القضاة في اوقاته .

الخلاصة سكرت . ورحت اطرف الاصحاب بحديث حنا وفانوسه، وابيت في تعتعتي الا ان اقوم الى الفانوس فانزله عن قنطرة القبو واضعه وسط الخوان ادق به كأسي وادعو الاصحاب الى دق كؤوسهم.

✶

شد ما كانت دهشتي اذ افقت في الليل ونظرت من النافذة فاذا

الفانوس معلق بالقنطرة وله في الليل اضواء باهرة .

فانوس حنا لم يعرف الزيت منذ ماتت ام حنا ، وبيدي وضعته على الطاولة وتركته بين الكؤوس والصحون ! انه حلم . اوهو من رؤى السكر ؟

فركت عيني بكلتا يدي ونظرت ثانية فلم ار الا الظلام فضحكت وغطيت رأسي باللحاف .

*

على ان الصباح لم يكد يطلع حتى رأيت حنا بلحمه ودمه على سطح القبو ، والفانوس بيده يرفعه الى الشمس ، وباليد الاخرى يهيل من الفضاء شيئا او يصب .

حنا يزيّت فانوسه .

يجب ان اقول لكم ان حنا كان يعبيء فانوسه من اشعة الشمس. الضيعة كلها تعرف ذلك وتتندر به . وحينما رفعت شركة الكهرباء اسعارها تذكر الفقراء فانوس حنا ، وتذكره كذلك البخلاء من الاغنياء. لم يكلفه في زمانه زيتا ولا كازا ولا كهرباء .

*

قدرتم ولا شك ما حصل . هرب حنا من العصفورية . ساعيده على عقبيه من حيث اتى ، قلت .

وحزمت امري وانا احزم تكتي متهيئا له . فاذا به يسبقني الى باب بيتي والفانوس بيده ويقول لي بمنتهى اللطف :

ـ اهلا بالجار . جئت اهنئك ببيتك الجديد .

انحل ما كان من حزمي وعزمي ، وملت الى المزاح :

ـ اين كنت يا حنا ؟ طولت الغيبة .

ـ في سياحة ، قال ، عظيمة ! عظيمة ! واشكرك على التذكرة. لا انسى انني مدين لك بهذه السياحة .

ولما سالته اين كانت سياحته قال :

ـ بعشتني وتتظاهر بانك لا تعرف ؟ صدقني ، في البلاد التي كنت فيها ، اريد ان اقول في مدينة المجانين لم اجد واحدا اعمى، عدا الاطباء طبعا . لذلك تركت العصفورية . لا شغل لي فيها . شغلي مع العميان هنا . ولذلك عدت الى هنا وحملت فانوسي من جديد .

دعوت حنا الى تناول شيء . فقد كانت بقايا الطعام على المائدة. لم يكتمني انه كان جائعا فاكل ثم تناول فانوسه عن العتبة وودعني :

ـ لا تحمل كلفة ، قال . اي خدمة .

واشار صوب القبو متابعا :

ـ الجار للجار .

*

اعلم جيدا ان الرهبان كانوا يضحكون في ديرهم . يفركون لحاهم ويقولون في كيدهم شامتين بي :

ـ قلع توتات العودة الهترئة وحنا لم يستطع قلعه . وعاد حنا يضع فانوسه هذه المرة في قفاه .

الواقع انني عدلت من تلقاء نفسي عن طرد حنا من القبو وانست بفانوسه .

تسالونني عن القفا ـ جل شانكم ـ فازيدكم علما بذلك ، حنا ، بعد هربه من العصفورية وعودته الى الضيعة ، خطر له ان يغير خطته. كان من قبل يضع فانوسه في وجوه الناس فاصبح يضعه في اقفيتهم ايضا .

فسّر لي :

ـ العمي اثنان . واحد من الامام واخر من الوراء وربما كان الذي من الوراء اعظم .

علي انني اظن الرهبان . حنا يعدني في المبصرين من الجهتين :

اكد لي ذلك منذ تركته يعود الى القبو .

*

قلت : ما اخسر ؟

حنا يتعهد جنينة التفاح التي قامت في العودة حوالي البيت . يسقي الزهور على الفيراندا . يشتري لي حوائجي من دكان الضيعة. يقوم على خدمتي طوال الصيف ، وفي الشتاء ناطور على بيتي بالمجان.

لا انسى القلطة التي ارتكبتها حينما عرضت عليه اجرا . رفع فانوسه وصاح بي :

ـ عدنا الى العمى ؟ اختر . من اين تريد ان اضعه لك ؟

فنجوت بنفسي ، وحلفت لا اعود لمثلها .

بلى . رضي حنا ـ اقصى ما اقنعته به ـ ان ادفع عنه حسابه كل شهر في دكان الضيعة .

*

قلت لحنا ذات مساء وهو قاعد امامي على العتبة :

ـ قل لي يا حنا : لماذا تعلق فانوسك بالقنطرة ؟

قال :

ـ أنتظر .

قلت :

ـ من ؟

قال :

ـ ضيوف الليل .

ولما سالته ان يذكر لي بعضهم لعلي اعرف احدا منهم قال :

ـ كلهم ، كل الذين اعطوك عمرهم من اهل الضيعة . يزورونني كل مساء ، ومعهم بوحنا وام حنا . يسهرون كل ليلة عندي .

*

مرة قامت قيامة الضيعة على حنا .

فاجاه غاد الى كرمه يحمل فانوسه في المقبرة .

كان بوخليل قد مات ودفن في الصباح . فعاد الغادي الى الضيعة يوقظ ام خليل واولادها ويقول لهم ان حنا الفانوس يحاول فتح تابوت بو خليل لسرقة خاتم الذهب الذي في اصبعه .

شمروا الى المقبرة فوجدوا التابوت على حاله .

قلت لحنا :

ـ ماذا كنت تعمل في المقبرة ؟

قال

ـ سمعت اولاد بو خليل يتخانقون في الليل ، بعد خروج المعزين، على تركة المرحوم . ورأيت ام خليل قاعدة امام الطبلية تنظر الى الطعام حزينة ولا تاكل . قلت : اذهب واقول لبو خليل ان يأتي ويصلح بين اولاده ، وان ام خليل تنتظره على العشاء .

وبعد سكوت تضاحك بمرارة :

ـ الخاتم ! الخاتم ! تريد ان اقول لك اين خاتم الذهب ؟ لما ادار المشيعون اقفيتهم بعد الدفن كان حفار القبور يشيل الخاتم من اصبع بو خليل ويدسه في جيبه . وتسالني لماذا اضع فانوسي في اقفية الناس ؟.

ومرة اختلف حنا مع مختار الضيعة .

كان للمختار ولد مدلع ينزعم اولاد الضيعة ويحملهم على اللحاق بحنا في الطريق والدق له بالتنك منادين :

ـ حنا الفانوس ! حنا الفانوس !

فذهب حنا الى المختار وطلب منه ان يربي ابنه الازعر . فما كان من زوجة المختار الا ان نترت الفانوس من يد حنا وقذفته على الدرج فضاربة الباب بوجهه .

لمّ حنا فانوسه وراح لم يقل شيئا .

في الصباح أفاق الجيران على حنا واقفا بفانوسه على سطح بيت المختار يلوح به في الفضاء ويرفعه مدى ذراعيه . فأخذوا يتنادون وينظرون اليه متسائلين عن مغزى هذا الضرب الذي ينتقم به حنا من المختار ، لانهم كانوا قد عرفوا بالحادث . وأحس المختار بالتجمهر حول بيته ورأى الاصابع تشير الى السطح فبادر الدرج . ولكنه ما كاد يطأ على السطح حتى كان حنا قد قفز الى الجل بفانوسه وأطلق ساقيه للريح .

سألوا حنا لماذا يلوح بفانوسه هكذا على سطح بيت المختار ، فقال :

ـ لكي يرى أهل الضيعة والجوار القرون التي أطلعتها له زوجته وقدحت السقف .

*

وثالثة ، فضيحة .

وصل خبرها الى الجرائد في بيروت . ولكنها اكتفت بذكر الاحرف الاولى من اسماء الشخصيات . رجال دنيا ودين من أعلى الطبقات . وسياسة فوق ذلك .

ومفاده ان نائب المنطقة أبدى رغبته في زيارة الضيعة يوم عيد مار حنا عليه السلام ، وهو شفيعها . واتفق مع مطران الابرشية على ملاقاته . فجاء المطران في العيد وأقام قداسا صارخا تصدر النائب فيه الحضور ـ ومنهم المختار والشاويش والوجهاء ـ على كرسي مخملي ركزه له القندلفت بوجه المذبح .

أين كان حنا ؟ كيف دخل حنا ؟ لا أحد يعرف . لم يروه الا وهو على درج المذبح ينحني ثم يضع فانوسه في قفا صاحب السيادة الكلي الاحترام .

فضيحة ، قلت لكم ، أعجز عن وصفها وعن وصف غضب النائب والمطران .

نام حنا بالقرغول تلك الليلة طبعا . وسلخوا جلده من كثرة الضرب . ولولاي لتخثّت عظامه في الحبس ، لان المطران لم يكن يصدق ان حنا مجنون .

حنا قال في القرغول ان نيته كانت طيبة . فهو لم يقصد الهزء من المطران ـ معاذ الله ـ ولكنه أراد ان ينبه سيادته الى أن حضرة النائب وراءه يضحك عليه . فهو ، أي النائب ، قد تناول القربان على ألف كذبة وكذبة في بطنه .

*

ماذا أحكي لكم ايضا من اخبار حنا الفانوس ؟

ذات مساء دعوته الى العشاء معي على الفيراندا .

قلت :

ـ تعرف ، يا حنا ، ديوجين ؟

قال :

ـ من حضرته بالخير ؟

فقمت الى القاموس أقرأ له .

فجعل يصغي وهو يقلب شفتيه ويردد : « ما شاء الله ! ما شاء الله » باستخفاف عظيم . وأنا ماض في القراءة .

قلت :

ـ ما رأيك بصاحبك ؟ ممكن ان تكون من نسله .

فدوّر فيّ عينيه :

ـ أنا ؟ أنا حنا بن شعيا بن بطرس بن مرقص بن قزحيا بن شعيا بن قزحيا بن مرقص بن بطرس .. ارجع معي الى الوراء حتى تصل الى حنا الاول المشهور المذكور في تاريخ الدويهي .

نسيت ان اقول لكم ان حنا يقرأ ويكتب . وعنده توراة كبيرة و « ميزان الزمان وتاريخ الاعيان في جبل لبنان » وغيرها كثير .

ثم هزّ برأسه .

ـ من صاحبك وما فلسفته ؟ قضى حياته يفتش عن رجل ؟ الرجال اكثر من الهم على القلب . الاسكندر الذي قال له قم من شمسي أما كان رجلا ؟ النابليون أما كان رجلا ؟ المير بشير المالطي.. أعدّ تلك الالوف من الرجال . ولكن دلني على واحد ، واحد منهم فقط ، لم يهرس بقدميه البشر ؟ واحد ، يعني ، غير أعمى لم يعتقد انه ملك او سيملك الارض . عميان ، كلهم عميان . أما رأوا ان الارض ليست ملكهم وانما هم ملكها ؟ لا . لا . لست من نسل ديوجنك ولا أعرف عليه . الا اذا كنت لم تفتح لي سيرته وتدعمها بقاموسك لاترك لك القبو وأعيش كما عاش ديوجنك .

واحمرت عينا حنا بالشر ، وحمل فانوسه للانصراف . وعند الباب أدار وجهه اليّ :

ـ طمن بالك . حنا الفانوس أذكى من ان يعيش كصاحبك في برميل زبالة على الطريق .

*

ـ لماذا لا تتزوج يا حنا ؟

طرحت عليه السؤال مرارا فكان دائما يداورني ويغير الموضوع . حشرته ذات يوم فأمسكته من قمباز المزق وقلت له :

ـ ترقا لك هذا القمباز على الاقل ؟

قال :

ـ من ؟

ـ امرأة تتزوجها .

فنظر اليّ طويلا :

ـ تتكلم عن جد ؟

ـ طبعا . بنات الحلال كثار . أتريد ان اختار لك واحدة ؟

ـ كثّر الله خيرك . لا .

ـ لماذا ؟ الذين يتزوجون أحسن منك ؟

ـ عميان .

وأدار لي ظهره متابعا :

ـ وأنت أكثر عمى منهم . ضيعان أملي فيك .

ـ بل تقول لي لماذا لا تتزوج ؟

فانتصب بوجهي متحديا :

ـ اكراما لك قبل كل شيء . أيعجبك أن أقلقك في أنصاف الليالي على خناقاتنا أنا وامرأتي ؟

ـ ليس من الضروري أن تتخانقا .

ـ عدنا الى العمى ؟

ـ والاولاد . ألا تحب الاولاد ؟

ـ أحبهم في ساحة الكنيسة يلعبون . لا أحبهم في البيت يملأونه بالصراخ ، واذ أموت يختلفون على التركة .

ـ اذن أنت لا تحب النساء .

ـ من قال لك ذلك ؟ أحب كل النساء نكاية بك .

ـ كيف ؟

ـ اقول احب كل النساء لا واحدة . لانني اذا احببت واحـــدة منعتني من حب البقية .

ـ يا ملعون !

قلت ذلك وانا اربت على كتفيه ، فانفلت مني يقول :

ـ ولكن الاهم من كل ذلك فانوسي . فانوسي .

ـ وما شان امرأتك والفانوس ؟

ـ اذا رأيت من الضروري يوما ان أعلقه لها من جهة ما ؟

فخنقت ضحكة جاءتني فيما كان حنا يتابع :

ـ اسمع . انا ما خفت منك حينما اشتريت العودة ، ولا من رئيس الدير من قبلك ، ولا من القضاة والاطباء والجندرمة الذيـن حلفوا كلهم ان يفعلوا بي كذا وكيت وعجزوا . مخلوق واحـــد تحت السماء أخاف منه .

ـ من ؟

ـ امراتي ، أن تكسر الفانوس على رأسي .

*

كنت أتوقع من حنا كل شيء الا ان يعمل ما عمله في النهـاية معي ومع فانوسه .

ففي صباح يوم شامس من هذا الشتاء خطر لي ان أصعد الـى الضيعة وأتنشق الهواء النقي . قلت : وأسمع الى اخبار حنـــا وفانوسه فقد اشتقت .

على عتبة البيت درت صوب القبو وناديتـــه على عادتي ليأتي ويستقبلني على عادته . فلم يجبني أحد .

ناديت ثانيا وثالثا ...

ثم انتبهت الى ان الفانوس غير معلق بالقنطرة ، فقلت : حنا في بعض مهماته في الضيعة مع فانوسه .

وانحنيت الى ممسحة الباب فرفعتها فوجدت مفتاح البيت فـي الموضع المتفق عليه بيني وبين حنا اذا غاب . ولكني وجدت معه ورقة مثقوبة من طرفها ومربوطة بعنقه بخيط مصيص . فتناولتها فاذا فيها بخطه المفرطح :

« بخاطرك . لا تؤجر القبو . ربّ فيه خنازير »

الامضاء « حنا بلا فانوس »

دار راسي ولم أفهم شيئا . فانطلقت اسال في الضيعة . قالوا :

ـ اما عرفت ؟ حنا الفانوس تزوج . راح خطيفـــة مع دلول ابنة الفران .

كنت اسمع بدلول على السنة الخبثاء .

يقولون انها تنزل الى بيروت دون علم ابيها وامها وتتغيب ليالي عند خالتها التي تشتغل في اوتيل على ساحة البرج . وابوها لا يريد ان يتعرف على خالتها . في المرة الاخيرة هـــدد بوضعها في الفرن ، وسط النار ، ليتخلص منها ومن حكي الناس .

ولكن ام دلول ردت زوجها عن ابنته وقالت له :

ـ ارجع لفرنك . هذا شغلي . انا اربيها .

واختلت بها في البيت . الجيران سمعـــوا شهقات دلول ولم يسمعوا لامها صوتا الا « اسكتي ! اسكتي ! » . واذا بها بعد ساعة تفتح الباب وتقول على مسمع من الجيران :

ـ تريدين ان تتزوجي حنا ؟ يقبر عيونك وعيونه . مبروك عليك. ولكن قولي لي ما دخل خالتك في اقناع أبيك ؟ أما عندك أم ؟

وأخبرني الخبثاء عن دلول اشياء ـ لهم الله ـ منها انها حبلى. ولكن كل ذلك لا يهمني .

ما همني ان حنا تزوج . راح خطيفة . خطفتـــه دلول بمعاونة امها واصحاب المروءة من الشباب .

وزادوا :

ـ دلول قلعته القمباز ولبسته البنطلون الافرنجي . وهو يعيش معها عند خالتها في الاوتيل على ساحة البرج .

*

قلت لكم لم أكن أنتظر من حنا الفانوس ان يعمل ما عمل .

اما ما عمله معي فيجب الاعتراف انه كان غاية في اللياقـــة والامانة .

بقي الفانوس .

لماذا وقّع حنا ذلك التوقيع وأين فانوسه ؟

وقصدت من فـــودي الى القبو أطوف بزواياه وأفتش عـــلى رفوفـه فلم أجد شيئا .

وفيما انا خارج انكسر تحت قدمي شيء مثل الزجاج . فانحنيت فاذا شظايا مبعثرة يغطيها التراب . حطام فانوس حنا ما في ذلك ريب.

ولكن من حطمه يا ترى ؟

دلول لخلاصها منه ؟

ام حنا على سبيل الاحتياط لسلامة رأسه ؟

لم ار وجها لحنا مذ ذاك لاعرف الحقيقة .

بيروت **توفيق يوسف عواد**

قريبـــا

العـــراء

مجموعة قصص

بقلـــم

الدكتور سهيل ادريس

دار الاداب